العرب
الجمعة 2021/05/07
السنة 43 العدد 12053

أي سوريا يمكن الرهان على إنقاذها..

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك كلام كثير بعضه حقيقي وبعضه الآخر مبالغات عن اندفاع عربي تدعمه روسيا، أو على الأصحّ بالتنسيق معها، في اتجاه إعادة تأهيل النظام السوري.. أو تأهيل سوريا. في النهاية لا أمل في إعادة تأهيل النظام فيما مطروح إمكان تأهيل سوريا على الرغم من كل التغييرات التي طرأت على البلد المقيم تحت خمسة احتلالات.

الأكيد أنّ هناك بحثا في مستقبل سوريا ووضعها في المنطقة، يشمل ذلك البحث عودة سوريا، في ظلّ النظام القائم، إلى احتلال مقعد جامعة الدول العربيّة. قد يكون مدير المخابرات السعوديّة خالد الحميدان زار دمشق أخيرا، وقد تكون الزيارة اقتصرت على وفد أمني سعودي جاء للبحث في قضايا عالقة بين سوريا والمملكة. بين القضايا التهريب، تهريب المخدرات خصوصا، ووضع سجناء سعوديين موجودين في سجون النظام كانوا بين الذين اعتقلوا مع إسلاميين آخرين في منطقة الغوطة القريبة من دمشق قبل سنوات عدّة.

ما هو مهمّ، أنّه عاجلا أم آجلا، هناك سؤال أوّل سيفرض نفسه بقوّة هل يمكن إعادة تأهيل النظام السوري؟ لكنّ السؤال الثاني الأهمّ، الذي يفترض بقاؤه في البال، هل يمكن فصل النظام السوري عن النظام في إيران.

تستحق سوريا الرهان عليها وعلى مستقبلها، علما أنّ النظام حقّق إنجازا ضخما يتمثل في الربط بين مصيره من جهة ومصير البلد من جهة أخرى. يبقى شعار "الأسد أو نحرق البلد" الشعار الأهمّ الذي رفعه النظام منذ اندلاع الثورة السورية قبل ما يزيد على عشر سنوات. من أجل بقاء بشّار في دمشق، يبدو كلّ شيء مسموحا، بما في ذلك تهجير السوريين من بيوتهم وأراضيهم إلى مناطق داخل سوريا وأخرى خارجها. ليس مهمّا مقتل ما يزيد على نصف مليون سوري. ليس مهمّا الاستعانة بالميليشيات التابعة لإيران لقتل السوريين وتهجيرهم وإجراء تغييرات ذات طبيعة ديموغرافيّة. ليس مهمّا الاستعانة بالروس لتحويل سوريا حقل تجارب لطائراتهم وأسلحتهم المختلفة التي يسعون إلى تسويقها في مختلف أنحاء العالم، أي حيث يوجد زبائن لتلك الأسلحة التي تحتاج موسكو يوميّا إلى إقناع الآخرين بفعاليتها. ليس مهمّا استخدام السلاح الكيميائي والبراميل المتفجرة لقتل السوريين. المهمّ بقاء النظام الذي ثار عليه السوريون نظرا إلى أنّهم يرفضون البقاء عبيدا إلى أبد الآبدين.

باختصار شديد، لا يمكن إعادة تأهيل النظام، بل يمكن الرهان على إعادة تأهيل سوريا. يحتاج ذلك قبل كلّ شيء إلى مؤتمر دولي. مهمّة مثل هذا المؤتمر إيجاد صيغة جديدة لسوريا بعيدا عن النظام القائم. مثل هذا المؤتمر يحتاج إلى توافق دولي على أن صلاحيّة النظام انتهت. في انتظار الوصول إلى مثل هذا التوافق ستبقى أميركا في شمال شرق سوريا حيث وضعت يدها مع الأكراد (قسد) على القسم الأكبر من الثروة المائيّة والزراعيّة والنفط والغاز، وستبقى تركيا في الشمال السوري حيث تعزّز وجودها يوميا وعينها على الأكراد، وستبقى روسيا في طول الساحل السوري وفي الجنوب حيث لم تستطع الإيفاء بوعدها بالنسبة إلى لجم الوجود الإيراني الذي لا يستهدف إقامة قواعد عسكريّة فحسب، بل يسعى أيضا لتغيير طبيعة المجتمع السوري في مناطق معيّنة خصوصا على طول الحدود مع لبنان. فوق ذلك كلّه، ستظل إسرائيل في الجولان المحتلّ منذ العام 1967 وستضرب في الداخل السوري حيثما تشاء وساعة تشاء وصولا إلى مناطق قريبة من حيث الوجود الروسي في اللاذقيّة ومحيطها.

عاجلا أم آجلا هناك سؤال سيفرض نفسه بقوّة هل يمكن إعادة تأهيل النظام السوري؟ لكنّ السؤال الأهمّ، الذي يفترض بقاؤه في البال هو هل يمكن فصل النظام السوري عن النظام في إيران

يمكن الرهان على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سوريا وهذا واجب عربي مرتبط بأمن الإقليم كلّه. لكنّ ما لا يمكن الرهان عليه هو فكّ العلاقة بين النظام السوري وإيران. لا تسمح طبيعة النظام بذلك. يؤكد استحالة فكّ العلاقة التي اختلفت طبيعتها ظاهرا، لكنّها بقيت على حالها في العمق بعد خلافة بشّار لوالده حافظ في السنة 2000، مدى تحكّم طهران بالقرار السوري. تكفي العودة إلى مذكرات عبدالحليم خدّام نائب الرئيس السوري في عهدي الأسد الأب والأسد الابن وقراءة ما بين السطور لاستنتاج أنّ حافظ الأسد كان في علاقته مع النظام الإيراني أكثر تعصّبا لمذهبه العلوي من بشّار وذلك على الرغم من تغطيته ذلك ببعض الشخصيّات السنّية التي أحاط نفسه بها. كان خدّام من بين هذه الشخصيّات، كما كان هناك رئيس الأركان حكمت الشهابي ووزير الدفاع مصطفى طلاس وآخرون. لكنّ حافظ الأسد كان شريكا، إلى جانب إيران، في الحرب العراقيّة – الإيرانية بين 1980 و1988 وكانت سوريا تستورد أسلحة من دول أوروبا الشرقيّة، من تشيكوسلوفاكيا وغيرها، وترسلها إلى إيران. إضافة إلى ذلك، كان حافظ الأسد وراء دخول "الحرس الثوري" إلى الأراضي اللبنانية في 1982 تمهيدا لتأسيس "حزب الله" وكان يدعو ضباطه، استنادا إلى خدام، إلى مساعدة "حزب الله".

ليس صدفة أن تهبّ إيران لإنقاذ بشّار الأسد بعد ثورة الشعب السوري على نظامه الأقلّوي وليس صدفة أن تستعين "الجمهوريّة الإسلاميّة" بروسيا، عبر قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" الذي اغتاله الأميركيون مطلع العام 2020، وذلك عندما عجزت في خريف العام 2015 عن إنقاذ النظام السوري..

تبدو العلاقة بين النظامين السوري والإيراني أكثر تعقيدا بكثير مما يعتقد. لم تدخل إيران إلى سوريا ولم تستثمر فيها مليارات الدولارات ولم تجر تغييرا ديموغرافيا من أجل الخروج بسهولة. تعتبر إيران أنّها وُجدت في سوريا لتبقى فيها وأن إخراجها يحتاج حربا.. أو سقوطا للنظام في طهران. على الرغم من ذلك، لا مفرّ من البحث عن وسائل من أجل إنقاذ سوريا. أي سوريا مطلوب إنقاذها وما الصيغة التي ستستقر عليها سوريا مستقبلا. الثابت أن سوريا في حاجة الى صيغة جديدة في حال كان مطلوبا أن تبقى موحّدة بطريقة أو بأخرى. ليس لبنان وحده الذي يحتاج إلى مؤتمر دولي من أجل إخراجه من أزمته العميقة ذات الطابع المصيري. ما ينطبق على لبنان ينطبق على سوريا أيضا التي أصرّ النظام فيها منذ العام 1975 على لعب كلّ الأدوار التخريبية في لبنان، وهي أدوار ارتدّت عليه في نهاية المطاف وعلى سوريا نفسها.

قراءة أخرى لمقتل الإيطالي ريجيني بالقاهرة

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

لا يزال الغموض يلف حادث مقتل الشاب الإيطالي جوليو ريجيني منذ خمس سنوات في القاهرة، ويمثل منغصا قويا للعلاقات بين مصر وإيطاليا، وعلى الرغم من التطورات الإيجابية مؤخرا، إلا أن هذا الحادث يعكر جريانها بسلاسة، وكلما أرادت روما الإبقاء على المصالح الاستراتيجية مع القاهرة ظهرت تقارير تفتح ملف ريجيني.

قدمت قناة "تن" المصرية رواية جديدة مؤخرا حول مقتل ريجيني، لو اعتمدتها القاهرة منذ البداية كان يمكن تحاشي الكثير من المطبات السياسية التي فجّرتها تقارير حقوقية غربية، خاصة بعد أن انتقل الملف إلى البرلمان الأوروبي وجرى تداوله هناك، ووصل للقضاء في روما الذي طالب بتسليم أربع ضباط مصريين للتحقيق معهم بسبب شبهات عديدة تدور بشأن دورهم في مقتل الشاب.

تنصبّ الرواية التي قدمتها المحطة الفضائية من خلال فيلم وثائقي مدته نحو 45 دقيقة بعنوان "ريجيني"، حول اكتشاف يعلن لأول مرة على الملأ، يتعلق بأن الشاب كان يعمل ضمن جهاز استخبارات غربي أو أكثر، ومع أن الفيلم لم يحدد اسمه صراحة، لكن السياق العام والمقدمة والتمهيد التدريجي كلها تشير إلى بريطانيا.

جاء الفيلم من الناحية الفنية جيدا، حيث استخدم "دوبلير" لريجيني، وقدم قصصا متنوعة على لسان خبراء أمن وأكاديميين من إيطاليا تثبت تخابر الشاب، وأن تركيزه واهتمامه بالعمال البسطاء في مصر يؤكدان ذلك، وحوى الفيلم لقاءات مع خبير أمني مصري رفيع ومحام ضليع وشخصيات التقت ريجيني وتعاونت معه.

ساق العمل الكثير من الشهادات لتثبيت تهمة التخابر، وقد سمعت رواية من صحافي مصري كبير بعد مقتل ريجيني منذ سنوات بهذا المعنى، لكن السؤال الذي ظل معلقا لماذا لم تستخدم القاهرة هذه الرواية للدفاع عن موقفها بدلا من ترديد روايات متناقضة، أثارت شكوكا حول دور ما لأجهزة الأمن في عملية مصرع الشاب؟

يحمل التلميح لهذه الرواية في الوقت الراهن وعبر وسيلة إعلامية شكّا ضمنيا في صدقيتها أو إشارة قاسية لبعض الجهات الغربية، فإذا لم تتوقف عن ممارسة ضغوطها فمن الممكن فتح هذا الملف وتقديم أدلة تدعم فكرة التخابر بشكل غير مباشر.

ينطوي هذا السيناريو على رسالة لروما بأن استمرار العزف على وتر الأزمة وتأثيرها على علاقاتها الحيوية مع القاهرة قد يضطر الأخيرة إلى تقديمها رسميا للقضاء الإيطالي بكل ملابساتها العلمية والسياسية، ووقتها يتحول الحادث إلى كرة لهب ربما تلحق الأذى بكل من يقترب منها.

لا أعلم أسباب عدم اعتماد مصر على هذه الرواية مبكرا، خاصة أن الفيلم قدم استنتاجات وانتقى معلومات تؤيدها، ربما تكون الأسئلة التي أثارها متشعبة ويصعب العثور على إجابات محددة لها، أو لا توجد وثائق بحوزة الأمن تثبت التهمة لأن "اللابتوب" الخاص بالشاب الذي تستر خلف دراسة الماجستير عن الباعة الجائلين في القاهرة، أخفته أسرته عقب الحادث بكل ما يحتويه من رسائل.

جاءت أزمة ريجيني من تباين الروايات المصرية التي تنفي جميعها صلة أجهزة الأمن به، لاسيما أن جثته وجدت على الطريق بالقرب من أحد المقرات التابعة لجهاز الأمن الوطني، وهو دليل اعتمد عليه الفيلم الوثائقي لإبعاد الشبهات عن وزارة الداخلية، وتوجيه دفة الاتهامات إلى جماعة الإخوان المستفيدة من ذلك.

لم تكف آلاف الصفحات من التحقيقات التي جرت في مصر بشكل منفرد أو مشترك مع إيطاليا، في إقناع روما بعدم علاقة جهاز الأمن بالحادث من قريب أو بعيد، لأن سمعته لا تزال محل شك على الرغم من الاعتراف بكفاءته المهنية، إذ درجت منظمات حقوقية على تقديم تقارير تدين تصرفاته، اعتمادا على سمعة تاريخية ملوثة، ومعلومات تحمل في أحشائها ارتباكا يقلل من قيمتها الأمنية.

إذا كانت لدى القاهرة رواية سليمة تسند الوفاة لوقوع الشاب في فخ صراعات أجهزة تخابر ولم تستخدمها، فهذا يعني أنها تفتقر إلى الأدلة اللازمة، وهو ما يمكن استشفافه من الفيلم الوثائقي الذي حاول تحريك المياه الراكدة لجهة تخفيف الضغوط التي تتعرض لها الحكومة المصرية من وقت إلى آخر.

تأتي مشكلة هذا النوع من الأزمات من أنها لا تسقط بالتقادم، وتحظى بتعاطف إنساني عام، ويمكن استثمارها سياسيا في أي وقت، وفي إيطاليا تعد من أهم أوراق الضغط في يد المعارضة إذا أرادت الحكومة التغطية عليها أو عدم الاكتراث بها.

أصبحت الحلول التي يمكن التوصل إليها بين القاهرة وروما صعبة أو بعيدة المنال عندما انتقلت الأزمة إلى القضاء، ودخلت على خطوطها أحزاب ومنظمات حقوقية لتوظيفها، واقتربت منها جهات متعددة من مصلحتها ألا ترى تطبيعا كاملا في العلاقات بين مصر وإيطاليا يؤثر على بعض التوازنات الإقليمية.

كما أن المضمون الذي قدمه فيلم "ريجيني" المترجم إلى الإنجليزية فقد جزءا كبيرا من تأثيره، لأنه قدم من خلال وسيلة إعلامية محلية قليلة الانتشار، ولم يحظ بترويج وكأن الحكومة التي وقفت وراءه من خلف الكواليس تخجل من الترويج له، أو أرادت جس النبض ومعرفة ردود الأفعال أولا، أو هدفت إلى حصره في حيز الاجتهاد الإعلامي ونفي أيّ صفة رسمية له حاليا.

مع أهمية الرواية التي قدمها الفيلم وإبعادها الشبهات عن أجهزة الأمن، إلا أن تأخير عرضها لسنوات يثير شبهات في المحتوى، لأن مضي أكثر من ستة أعوام على الحادث هو فترة طويلة، وكان يمكن أن تصبح قصيرة بالنسبة إلى الأفلام الوثائقية والتحقيقات الاستقصائية التي تحتاج إلى وقت وجهد لو قدم عبر وسيلة محايدة.

وبدلا من أن يثبت الفيلم نجاعة الأمن قد يؤدي لتثبيت التهمة، حيث قدم معلومات متفرقة تخدم فكرة البراءة واعتقد أصحابه أن الفيلم كفيل بجلبها، وهو اعتقاد خاطئ، فالرواية التي أشارت لضلوع أجهزة تخابر في مقتل الشاب الإيطالي بدت أقرب لاستنتاج أكثر منها معلومات وموجّهة لردع جهات معينة ومنعها من التمادي في المتاجرة بالقضية.

أكد الفيلم أن قضية ريجيني حدثت لتتحول إلى سيف مسلط على رقبة القاهرة، وتحمل أبعادا سياسية متشابكة من بدايتها وحتى نهايتها، لذلك لن تفلح معها روايات أو مساومات، فهي جرح مستمر في النزيف لقوة الدعاية التي يتم توظيفها وقدرتها على دغدغة مشاعر الناس، بينما الدعاية المضادة غير قادرة على صياغة خطاب متماسك يضع حدا للاستهداف، ما يعني أن الأزمة وجدت لتبقى إلى أجل غير مسمى.